الفكر الاستشراقي و الحضارة الإسلامية
قراءة في الخلفيات و الأبعاد

أ.د بكري عبد الكريم
-جامعة وهران-

لقد كان من نتائج غزارة التراث العربي الإسلامي و امتداده في الزمان و المكان أن أصبح تراثا عالميا إنسانيا لا يمكن أن يتجاوزه أو يتجاهله المؤرخون للحضارات الإنسانية.. فلقد توزع و انتشر في أصقاع الأرض يجد الباحث نفسه مجبورا على التعامل مع ظاهرة تكون فريدة من نوعها على صعيد التراث الإنساني ، و هي انه لا يملك أن يبحث أي موضوع من موضوعات التراث العربي الإسلامي دون الاطلاع على ما كتبه أو حققه أو أصله ، أو أنتجه الآخرون . و بقدر ما لهذه الظاهرة من ميزات ايجابية على الصعيد الأكاديمي و الحضاري ، بقدر ما تدفعنا إلى وضعها في مواقعها الملائمة لها، حتى نتمكن من تنمية و بلورة الأصالة في تراثنا الفكري ماضيا و حاضرا من جهة ، و إبراز مدى امتداد جهودنا الفكرية في التراث العالمي من جهة أخرى.

و نحن في عالمنا الإسلامي نريد أن نعيد صيغة حيلتنا الفكرية بما يتلاءم مع متطلبات العصر و لا سبيل إلى تطوير الحياة بغير استكشاف عناصر القوة في حضارتنا.

و إذا كانت بعض عناصر هذه الحضارة هي خبرات و إضافات وافدة رافده ، ساكنة في جسم كياننا المعرفي الثقافي، و إذا كانت بعض أوبئة الضعف في حياتنا اليومية تعود إلى ما يفد علينا من حملات إعلامية و سموم فكرية و وصفات ماجنة، فإننا مدعوون إلى النظر إلى كل ذلك من زوايا متعددة، و بقراءات مختلفة بقدر تعدد و اختلاف المنطلقات الصادرة عنها.

و ليس في مقدورنا أو في نيتنا أن ندرس الحركة الإستشراقية بكل أبعادها و نزعاتها و توجهاتها في هذا العرض المحصور في مجال علاقة الإسلام بالدراسات الإستشراقية، و ليس في نيتنا و ليس في مقدورنا أن ندرس الحركة الإستشراقية بكل أبعادها و نزعاتها و توجهاتها في هذا العرض المحصور في مجال علاقة الإسلام بالدراسات الإستشراقية، وليس في نيتنا كذلك، و لأسباب منهجية أن نعقل الخلفية الفلسفية، أو السياسية التي انطلقت منها هذه الحركة ، حيث سنجد أن كثيرا من القضايا التي عالجها المستشرقون يسهل تفسيرها و تبريرها و فهمها في ضوء الخلفية الفكرية التي سنحاول أن نميط عنها اللثام في الفقرات القادمة.

و أول ما يجب أن يعرفه الدارس للتراث الإسلامي أن المنهج الإستشراقي الغربي يختلف عن المنحى العلمي الذي سلكه نخبة من الأعاجم عندما اعتنقوا الإسلام و ساهموا في النهضة الفكرية العلمية التي عرفها الإسلام في تلك الفترة المبكرة من تاريخه ... فلقد كان هؤلاء العلماء الأفذاذ الرواد ينضوون تحت لواء الإسلام عقيدة، و فكرا، و كانوا ينطلقون

من واقع انتماء و اعتزاز و تمسك بالعقيدة و كان هدفهم خدمة القران، و لغة القران. فجاء انجازهم إنتاجا متأصلا في ارض الحضارة الجديدة يساير الرسالة الإسلامية و ينسجم مع أهدافها السامية و يدخل في نطاق تفكير دعاتها يقول الزمخجري: " الله احمد على أن يجعلني من علماء العربية ، و جبلني على الغضب للعرب و العصبية. و أبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم و امتاز و أنضوي إلى لفيف الشعوبية و انحاز". [1]

و يقول البيروني: " ديننا و الدولة عربيان توأمان. و ترفرف على إحداهما القوة الإلهية ، و على الأخر اليد السماوية" و كم احتشدت طوائف من التوابع في إلباس الدولة جلابيب العجمة، فلم يتفق لهم في المراد سوق، ما دام الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمسا، فتقام الصلوات، بالقران العربي المبين ... و الهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية . و سيعرف مصداق قولي من تامل كتاب علم، قد نفل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه، و كسف باله، و اسود وجهه و زال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية و الاسهار الليلية .[2]

و لكننا عندما نريد دخول عالم الإستشراق و اكتشاف ما فيه فإن أول ما يستوقفنا هو أن مفهوم الكلمة (الإستشراق- مستشرق) تفيد في كل سياقاتها و ترجماتها و مستوياتها الدلالية معنى مركزي واحد هو دراسة "الآخر" بكل ما تعنيه كلمة الآخر من بعد و تميز و اختلاف ، و غرابة و غموض. و هو مفهوم يهيء الأنفس في العصور الجديدة لربط الشرق بالغرب مع الإيحاء بأن الغرب هو صاحب اليد العليا ، و صاحب الدور الأكبر في النهضة العربية الحديثة و هو الذي له الفضل في اكتشاف الحقائق و إخراج الكنوز المعرفية و في وقت كان العالم الإسلامي يعيش عيشة ركود و استرخاء و كانت حالته تدعو إلى تمثيله و قيادته و التفكير له. يقول ادوارد سعيد: " إذا كان جوهر الإستشراق هو الذي يستحيل اجتثاءه بين الفوقية الغربية و الدونية الشرقية، فان علينا أن نكون على استعداد لنلاحظ كيف أن الإستشراق في تناميه، و في تاريخه اللاحق قد عمق هذا التميز.[3]

إن هذه النظرة الاستعلائية للواقع الإسلامي و للتراث الإسلامي هي التي ميزت الحركات الإستشراقية عن غيرها من الحركات الاستكشافية التي عرفها السلام في تاريخه الطويل. فلقد مر زمان احتل فيه الإسلام مكانة ، و احدث فيه ما احدث، و اثر في حركته تأثيرا اجبر علماء أوروبا و طلابها على السواء إلى دراسته من موقع التلمذة و التسليم و الاكتشاف و بلغ إعجابهم باللغة العربية لغة العلوم حدا أنساهم لغتهم الأصلية.

ضوء هذا نص نلتقطه من مدينة قرطبة و بلسان احد رجال الدين في القرن التاسع الميلادي نقراه و لسان حالنا يقول: " ما أبعد البارحة عن اليوم!! يقول هذا الرجل: " إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب، و حكاياته و يقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين و الفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها أو ينقضوها و إنما ليكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، و أين تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت عن الأناجيل المقدسة و من سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين و أثار الأنبياء و الرسل؟ إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب و آدابها، و يؤمنون بها و يقبلون عليها في نهم، و هم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها، و يصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب خليقة بالإعجاب. فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير

جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ... يا للألم !! لقد نسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين ألاف واحدا منهم يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون في الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا و جمالا.[4]

و إنما أوردنا هذا النص، و أجرينا تلك المقارنة لأهمية النتيجة التي نريد الوصول إليها، حيث أن هناك فرقا بين أن يكون التواصل بين الحضارتين قائما على أساس الرغبة في الاكتشاف و التحصيل و التعاون، و التكامل و بين أن يكون أساسه الهيمنة و الاستعلاء مما يحجب كثيرا من الحقائق و يصبغ النتائج بإصباغ عقد التفوق. يقول احد الباحثين المعاصرين: " لقد استجاب الإستشراق للثقافة التي أنتجته أكثر مما استجاب لموضوعه المزعوم الذي كان هو أيضا من نتاج الغرب.

إنها الثقافة التي تنسجم مع ما كان يخططه الجهابذة السياسيون في الغرب للشعوب العربية الإسلامية و نحن نكتفي بتقديم نموذج من هذه الثقافة و نترك الوزير البريطاني ليقدم لنا ملامح هذه الثقافة في محاضرة ألقاها في مجلس البريطاني عام 1910 حول: " المشكلات التي تسعى أن تعالجها في مصر. يقول:

إن الأمم الغربية فور انبثاقها في التاريخ تظهر تباشير القدرة على حكم الذات ... لأنها تمتلك مزايا خاصة بها ... و يمكنك أن تنظر إلى تاريخ الشرقيين بأكمله فيما يسمى ، بشكل عام ، المشرق، دون أن تجد أثرا لحكم الذات على الإطلاق . كما القرون العظيمة التي مرت على الشرقيين – و لقد كانت عظيمة جدا– انقضت في ظل الطغيان، ظل الحكم المطلق . و كل إسهاماتهم العظيمة في الحضارة الإنسانية – و لقد كانت عظيمة – أنجزت في ظل هذا النمط من الحكم . فقد خلف فاتح فاتحا ، و تلت سيطرة سيطرة ، غير أنك في دورات القدر و المصير كلها لا ترى امة واحدة من هذه الأمم تؤسس بدافع من حركتها الذاتية ما نسميه نحن ، من جهة نظر غربية ، حكم الذات.
هذه هي الحقيقة ، و ليست القضية قضية فوقية أو دونية......

إلى أن يقول ...." اهو خير لهده الأمم العظيمة – و أنا أعترف بعظمتها – أن نقوم نحن بممارسة هدا النمط من الحكم المطلق ؟ في ظني أيضا أن التجربة تظهر أنهم في ظل هدا النمط عرفوا حكومة أفضل بمراحل مما عرفوه خلال تاريخ عالمهم الطويل كله، و إنما ليست مصدر نفع لهم بل هي دون شك مصدر نفع للغرب المحتضر بأكمله .... نحن في مصر لسنا من اجل المصريين و حسب ، مع أننا فيها من اجلهم ، نحن هناك أيضا من اجل أوروبا كلها . "[5]

و لقد تحمس بلفور و مستشاره لأداء هذا الواجب (بين قوسين) واجب الاحتواء فاجتهدوا في معرفة
كل ما يرشدهم إلى طبيعة العقلية العربية الإسلامية و طاقاتها و مجال إبداعها و عقائدها و نظم حياتها يقول احدهم : " إن الفقه الذي اضطر على الصعيد التطبيقي إلى تقديم تنازلات متزايدة باستخدامات الناس و عاداتهم و لاعتباطية قواعدهم ، احتفظ مع ذلك ، بتأثير لا يستهان به على الحياة الفكرية للمسلمين . و لذالك فهو يبقى ، و هو يظل كذالك بالنسبة لنا أيضا، موضوعا للدراسة مهما ، لا لأسباب تجريدية فقد ترتبط بتاريخ الفقه ، و الحضارة و الدين ، بل لأغراض عملية أيضا فكلما ازدادت العلاقات بين أوروبا و الشرق المسلم حميمية ، و كلما ازداد عدد الدول الإسلامية التي تقع تحت سلطان

أوروبا ، كلما ازدادت بالنسبة لنا نحن الأوروبيين أهمية أن نصبح أكثر ألفة و معرفة بالحياة الفكرية ، و الفقه الديني ، و خلفية التصويرية للإسلام . " 6

يبدو أن السيد ليون روش LEON Roche و هو تلميذ دي ساسي المستشرق الشهير كان يستحضر
هذا الدرس و هو يعد مشروع استصدار فتوى من علماء الإسلام تمكن فرنسا المستعمرة الغازية من البقاء و الاستقرار في الجزائر هادئة البال ، وذالك بإخماد حركة الجهاد ضدها أيام المقاومة الشعبية التي كان يقودها الأمير عبد القادر الجزائري . و كان نص الفتوى التي باركها الحكام في فرنسا و شجعوها : " إذا دافع المسلم عن بلاده أو تغلب عليه النصارى فيها و لكنهم أباحوا له شؤون دينه و احترموا نساءه و مساجده ، و هو يرجو أن يتحرر من غلبتهم عليه ذات يوم هل يجب عليه الجهاد أو يسقط ؟ و قد حصل روش باستعماله كل وسائل الترغيب و الترهيب على الموافقة على هذه الفتوى من الحجاز و الأزهر و القيروان . 7

و إذا كانت المقاومة الجزائرية قد استمرت خمس سنوات بعد صدور الفتوى فإن ذلك لا يمنعنا من استخلاص نتيجتين أولا هما : إن المستعمر كان يدرك أهمية الثقافة الدينية في التأثير على عامة الشعب مما يجعلنا نضع هذا الهدف في مقدمة مهام الإستشراق بصورة عامة و نحن نستثني فريقا منهم و نفرا الخدمة
العلم و الاطلاع و الاستفادة.

ثانيهما :إن هذه الفتوى التي نتحدث عنها قد كانت لها أثارها و مفعولها على بعض أفراد الشعب الجزائري و منهم شيوخ و علماء.

و يمكن أن نعتبر هذا التوظيف الاجتماعي للفقه الإسلامي بداية تحول في الحركة الإستشراقية من دراسات فقه لغوية أدبية دينية و من إدراك عام غائم للشرق و العالم الإسلامي بالخصوص إلى تخصص من تخصصات العلوم الاجتماعية، فلم يعد المستشرق يحاول أن يتقن لغات الشرق المنطوية بل انه يبدأ من ذلك كعالم اجتماعي مدرب ثم يطبق علمه على الشرق يقول "ادوارد سعيد" إن ما يبدو أكثر أهمية في عرف الخبير المناطقي هي الحقائق التي ربما يكون النص الأدبي يشكل قلقلة لها و الحصيلة الصافية لهذا كله هي إبقاء المنطقة و سكانها مقلصين إلى مواقف و اتجاهات وإحصائيات و "أرقام" و مجردين من الإنسانية .8

و يتبلور هذا النهج في دراسة قضايا الأمم الإسلامية في التقرير الذي أعده معهد الشرق الأوسط بالولايات المتحدة الأمريكية يقول: "إن الجمعيات الروسية تنتج الآن خريجين يتكلمون العربية بطلاقة. و قد أكدت روسيا أهمية استهواء البشر عن عقولهم باستخدام لغاتهم الخاصة و الولايات المتحدة لا ينبغي أن تنظر أكثر مما انتظرت قبل أن تطور برامج اللغات الأجنبية فيها.

و هكذا أصبحت اللغات الشرقية جزءا من أهداف سياسة و جانبا من جهد إعلامي دعائي مدعم مستمر، فلا يهم إطلاقا ما يكون البشر أو ما يعتقدونه بل ما يمكن أن يدفعوا إلى أن يكونوه و يعتقدوه.9

و هكذا استطاع الإستشراق الجديد أن يتجاوب مع المتغيرات الجيواستراتيجية و يغير شكله و لباسه و أصبح يأتينا بوجوه متعددة و صور مختلفة معتمدا في ذلك على التطور السريع الذي عرفته تكنولوجيا الاتصال.

فإذا كنا نعيش عصر العولمة عولمة الاقتصاد و المال فإن مفهوم عولمة الإعلام أصبحت توازي توجيه الرأي العام و التأثير عليه ليساير الرؤى و التوجهات التي تحدد مصالح الدول الغربية الراهنة و المستقبلية ، خصوصا و إن الدول العظمى أصبحت تحتكر هذا السلاح الفعال الذي أصبح يعتبر السلطة الأولى في العالم خلال الألفية القادمة . و الحقيقة أن هذا السلاح الهام الذي يؤثر على العقول و كل القيم و السلوكات يوجد حاليا تحت احتكار الدول العظمى و خاصة منها انجلترا من خلال وكالة أنباء رويتر و فرنسا بوكالة أنباء A.F.P و الولايات من خلال وكالتي (U.S.L.A) و (A.P) و المحطات التلفزيونية العالمية من C.N.N و EURO-NEWS و غيرها. فبهذه المحطات العالمية تنتج و توزع حوالي 80 بالمائة من الإنتاج الإعلامي العالمي و توزعه على العالم.

و هكذا و تحت مسميات و عناوين براقة مثال: (حوار الأديان، حوار الحضارات، الثقافة الأورومتوسطية و التعمق في معرفة الإسلام) يتم تمرير جرعات مهيجة تارة و مخدرة تارة أخرى فلقد خصص لوموند الدبلوماسيLe monde diplomatique ملفا خاصا عما سماه بالمغرب العربي و الاحتجاجات الإسلامية، شارك فيه سبعة و عشرون كاتبا من مختلف التخصصات و التوجيهات. و كان هدف هذا الملف محددا من البداية و هو معالجة شعوب هذه المنطقة من الأمراض و من أعراض الأمراض التي تسببها الظواهر الإسلامية.[10] (يلاحظ كيف يتم الخلط بين السلام و بين الأمراض الاجتماعية التي تعرفها كل المجتمعات و منها المجتمع الفرنسي ذاته).

و عندما تخصص الصحافة الغربية جانبا لهذه المواضيع، نجد أنها تتفنن في صياغة العناوين المثيرة مثل: (الإسلام يهدد الجمهورية الفرنسية ، الإسلام على الطريقة الفرنسية ، تعدد الزوجات في الإسلام النساء المسلمات يجدن المواسات في الصحافة الغربية) و كثيرا ما تقترن هذه العناوين، بعناوين فرعية أخرى و بأسلوب خداعي يوهم بان الإسلام هو المسؤول عن الآفات و الماسي التي تشهدها المجتمعات الإسلامية. فتضع عنوانا ضخما: الإسلام في بلاد ما و تضع أسفل هذا العنوان عناوين فرعية منها: الفقر، المجاعة، المرض، البطالة، الحرب الأهلية داخل الأسرة الواحدة، العدوانية.

و هناك ملاحظة لغوية حقيقية و لكنها تفرض نفسها في هذا الموضوع، و هي أن كلمة: "شرق" في اللغتين الفرنسية و الإنجليزية و بخلاف كلمات (غرب) ، (شمال( )جنوب) تعني في معظم مشتقاتها معنى التوجيه و القابلية للتوجيه و التحويل و القيادة و هي الكلمات التي تترجم إلى أفعال برامج و سياسات إعلامية موجهة إلى القارئ المشرقي المسلم لتكييفه و لفت أنظاره.

و إذا كان الإستشراق القديم قد عمل على تكوين فكر بعض العرب و المسلمين بنزعاتهم و توجهاتها.

فإن الإستشراق الجديد قد سخر الإعلام لفرض نمط معين من الحياة الثقافية و الاجتماعية و التشكيك في القيم الإسلامية، و لقد استطاع بماله من هيمنة على وسائل الاتصال أن يفرض مادته الإعلامية المصنعة على كل وسائل الإعلام العربية و الإسلامية.

و هكذا أصبح القارئ و المشاهد و المستمع الإسلامي خاضعا لتبعية مزدوجة تبعية مباشرة للإعلام الغربي و تبغية إعلامية عربية ، خاضعة لآلة الإعلام الغربي، لكن الإستشراق كما يقول ادوارد سعيد خطا خطوة ابعد في هذا الاتجاه، فهو يعاين الشرق بوصفه شيئا وجوده معروض دائما للغرب ، و بوصفه أيضا شيئا بقي ثابتا في الزمان و المكان من اجل الغرب... أصبح مجرد استجابات للغرب، فالغرب هو المشاهد و الحكم (كذلك).

و بعد،و إذا كان سياق هذا الموضوع قد أملى علينا منهجية خاصة لدراسة الحركة الإستشراقية، فان ذلك لا يمنعنا من أن نسجل ما بذله المستشرقون قديما و حديثا من جهود مشكورة مثل تحقيق المخطوطات العربية في كل العلوم و الفنون و إحياء الثراث العربي الإسلامي و إخراجه للناس بمنهج منظم دقيق .و مثل تأليف الموسوعات الضخمة الشاملة لكل العلوم الإسلامية و فهرسة الكتب ... الخ. و مثل ترجمتهم لعدد هائل من الكتب العربية في مختلف العلوم و الفنون إلى اللغات الحية العالمية مع إثراء النصوص المترجمة ، الملاحظات و الإضافات و التوضيحات العلمية و مثل فهرسة كثير من الكتب العلمية القيمة.

و نتساءل في آخر وقفة لنا مع هذا البحث، هل من فائدة نجنيها، أو درس نستخلصه من السيرة أو المسيرة العلمية لهؤلاء الرجال و هل يجدي أن نبني جدارا منيعا لمنع تسرب الأخبار و البرامج و الثقافات الوافدة؟.

لعل الجواب على جزء من السؤال يقدمه لنا مستشرق كان –يوما– في موقع اخذ من عطاء الحضارة الإسلامية، مع اجراء تغيير بسيط و هام في نفس الوقت هو إحلال كلمة" : عربي" محل "أوروبي"، و إحلال كلمة "غرب" محل كلمة "شرق."

يقال فيما تم تلخيصه ا ن الأهم فيما نأخذه من الشرق هو أن نتمثل و نهضم ، و هذه هي الخاصية التي تميز العقل الأوروبي . إن دورنا أن نحافظ على قوة الاختيار ، قوة الإدراك، قوة تحويل كل شيء ، إلى جوهرنا نحن .و لاستكمال الجواب أقول مع القائل : "وددت لو استغربنا كما استشرقوا ، وددت لو اتبعنا أثارهم ، و مخترعاتهم و نقلناها إلى العربية، و لم نكتف بدراستها في لغتهم، أو نقلها كما هي في لغاتهم، لو فعلنا ذلك، لاغنينا رصيدنا المعرفي و امددنا النشء الجديد بكل أنواع الثقافات."

الهوامش:

[1]انظر النص في مقدمة كتاب حركات التعريب بالعراق د/ احمد مطلوب معهد البحوث و الدراسات العربية بغداد 1982

[2]نفسه.

[3]ادوارد سعيد: الإستشراق، المعرفة، السلطة، ترجمة كمال أبو ديب ص 73 ط:1 . 1981 مؤسسة الأبحاث العربية بيروت

[4]احمد سمايلوفيتش: فلسفة الإستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر ص 67- 68 دار المعارف مصر 1980.

[5]الإستشراق ادوارد سعيد ص .64

[6]نفسه 291 و 193.

[7]انظر مقالة أبي القاسم سعد الله في مجلة المنهل السعودية العدد 534 شهر أوت 1996

[8]الإستشراق ادوارد سعيد ص .273.

[9]نفسه ص 302.

[10] Le monde diplomatique Nov.1996. Paris